لماذا يكره العالم أمريكا؟

لماذا يكره العالم أمريكا ؟

ضياء الدين سردار

ميريل وين ديفيز

نقله إلى العربية

معين الإمام

شركة مكتبة العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

Original Title:
Why Do People Hate America?

By:
Ziauddin Sardar & Merryl Wyn Davies

Copyright © 2002, 2003 Ziauddin Sardar & Merryl Wyn Davies

ISBN 1-84046-525-5

All rights reserved. Authorized translation from English language edition Published By:Icon Books Ltd, UK.

حقوق الطبعة العربية محفوظة لمكتبة العبيكان بالتعاقد مع آكون بوكس. المملكة المتحدة.
© مكتبة العبيكان *1426هـ – 2005م*
المملكة العربية السعودية، طريق الملك مع تقاطع العروبة، ص.ب: *62807* الرياض *11595*

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O.Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى *1426هـ – 2005م*
ISBN 5-705-40-9960

ⓒ مكتبة العبيكان، *1426هـ*

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
سردار، ضياء الدين
لماذا يكره العالم أمريكا. / ضياء الدين سردار؛ ميريل وين؛ معين الإمام. – الرياض،
*1426*هـ
432 ص؛ *14×21*سم
1– الولايات المتحدة – العلاقات الخارجية

أ. وين، ميريل (مؤلف مشارك) ب. الإمام، معين (مترجم) ج. العنوان
ديوي *327.73* *1426/903*
رقم الإيداع: *1426/903*
ردمك: 5 -705- 40- 9960-

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved, No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تمهيد:

بعد الحرب على العراق 9

مقدمة 25

الفصل الأول:

الوقوف في نقطة الهدف 43

الفصل الثاني:

"هم" "الأشرار"، "يكرهون" "أمريكا" 87

الفصل الثالث:

أمريكا والعالم باعتباره أمريكا 129

الفصل الرابع:

شطائر "الهمبرغر" الأمريكية وغيرها من الفروسات 209

الفصل الخامس:

القصص الأمريكية ورواية القصص لأمريكا 271

الفصل السادس:

عبء البطل الأمريكي 331

الفصل السابع:

كراهية أمريكا وتجاوز جدار الكراهية 371

الهوامش 407

المراجع 427

تمهيد

بعد الحرب على العراق

بعد الحرب على العراق، أصبح السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" أوثق صلة بموضوعه. في الحقيقة، اكتسب كتابنا بعدا عالميا منذ إصداره الأول في الرابع من تموز/ يوليو 2002. السؤال تناولته استطلاعات الرأي في مختلف أرجاء المعمورة؛ وتساءل المعلقون السياسيون وكتاب الأعمدة الصحفية في القارات الخمس عن السبب الذي جعل لحظة التعاطف العالمي مع أمريكا، بعد فظاعة أحداث الحادي عشر من سبتمبر، تتحول في خلال أقل من عامين إلى انقسام متفاقم لا يطال مواقف الرأي العام وحده بل يخترق المؤسسات الأساسية للنظام العالمي. وبوصف السؤال/ الشعار "لماذا يكره العالم أمريكا" بيانا تصريحيا بالحقائق، استخدم كصيحة تعبوية من قبل السياسيين والمعلقين من اليمين واليسار على حد سواء، وتحول إلى دعوة للتمترس والتخندق. كما خدم تسويغ حلقة تبريرية مفرغة، مستدامة ومتبادلة، من ردود الفعل. وباعتباره حقيقة مقبولة سادت على نطاق واسع، استخدم كره أمريكا لحشد

الدعم لأفعال وتصرفات ومبادرات - أو القبول بها (دون استقصاء متعمق) - رسخت مشكلة أمريكا، وعقدتها، وصيّرتها أصعب على الحل، وأقل قابلية للحوار المنطقي، إضافة إلى أنها جعلت الولايات المتحدة أشد تصميما على التشبث بمسارها الذي اختارته، بغض النظر عما سببه من قلق وخوف وكراهية. وكما أشار أحد الآراء النقدية، فإن الأحداث اللاحقة "حاكت بشكل ساخر فعلا الحجة" التي قدمناها. (Future Survey, 25 12 March 2003 (3)).

باختصار، كان فعل أمريكا ورد فعلها، قبل وخلال وبعد الحرب على العراق، متطابقين مع المقدمات المنطقية التي قمنا بتحليلها باعتبارها أسبابا موجبة للقلق. أما التبعات والعواقب فيمكن قراءتها في نتائج استطلاعات الرأي العالمية. فقد وجد "مركز بيو للأبحاث المتعلقة بآراء الجمهور والصحافة" (في واشنطن) بعد عملية مسح نشرت نتائجها في حزيران/ يونيو 2003 أن "آراء الناس المؤيدة للولايات المتحدة قد تبدلت بشكل ملحوظ مقارنة بالسنة الماضية. فالحرب وسعت الصدع بين الأمريكيين والأوروبيين الغربيين، وأججت غضب العالم الإسلامي، وأضعفت الدعم للحرب على الإرهاب، وقلصت إلى حد بعيد مساندة الرأي العام العالمي للدعامات المؤسسة لحقبة

ما بعد الحرب العالمية الثانية ـ الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي (press.org_mailprc@people). أما الاستطلاع الذي أجرته هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) في أحد عشر بلدا بالتزامن مع مختلف المؤسسات المتخصصة في استطلاع الرأي، فقد وجد أن 60٪ من المبحوثين خارج الولايات المتحدة يتبنون مواقف سلبية أو معادية للرئيس الأمريكي. اعتبر المستفتون في كافة الدول، باستثناء استراليا وإسرائيل والولايات المتحدة، أن أمريكا أشد خطرا من سورية، وهي مرشحة محتملة للانضمام إلى "محور الشر". وأظهر الاستطلاع أيضا مواقف سلبية تجاه الحرب على الإرهاب ومساعي الولايات المتحدة في الشرق الأوسط

http://news.bbc.co.uk/1/hi/programmes/wtwta/default.stm

فيما وراء العناوين الرئيسة هنالك نتائج أشد إثارة للقلق. استطلاع المواقف العالمية الذي أجراه "مركز بيو" سابقا ونشر في آذار/ مارس 2003، وجد أن أقل من 40٪ من المبحوثين في أوروبا الغربية أيدوا انتشار الأفكار والعادات والتقاليد الأمريكية، وأن أقل من 50٪ أبدوا إعجابهم بالأفكار الأمريكية حول الديمقراطية. في أوائل عام 2003 نشرت نتائج عملية مسح لمواقف المواطنين في الاتحاد الأوروبي، حيث أظهرت تأييدا واسع النطاق في الدول الأوروبية لاقتراح يقول إن أمريكا

مسؤولة عن الإضرار بالبيئة، وهي تعمل جاهدة للإبقاء على الدول الفقيرة فقيرة.

ومما له دلالة أكبر أن استطلاع "مركز بيو" وجد أنه في السنوات القليلة السابقة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، لم يزعم سوى 30٪ من الأمريكيين اهتمامهم الشديد بأخبار دول العالم الأخرى. ولم تحدث صدمة الحادي عشر من سبتمبر أي تغيير. ففي أيلول/ سبتمبر 2002، قال حوالي 26٪ فقط من الأمريكيين الذين شملهم الاستطلاع إنهم يتابعون الأخبار العالمية "بانتباه شديد"، في حين أشار 45٪ منهم إلى أن الأحداث العالمية لا تؤثر فيهم.

في ردها على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لم تكتف أمريكا بإظهار نفسها باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة ذات القوة المفرطة، بل بوصفها أيضا واثقة بهذه القوة ومستعدة لاستخدامها كأساس لهيمنتها على العالم. وبعد إعلان الحرب على الإرهاب، خاضت أمريكا حربين تقليديتين، في أفغانستان والعراق، مستعرضة قوتها العسكرية الساحقة المريعة. لكن هاتين الحملتين كشفتا عن شيء آخر: استعداد أمريكا للجوء لقوة السلاح باعتبارها وسيلة أداتية مناسبة ومشروعة لضمان مصالحها وتعزيز أمنها. وبذلك وضعت عقيدة جديدة: الحق

بالقيام بضربة استباقية حين تعتبر أن أمنها، وبالتالي مصالحها القومية، معرضة للخطر. جوهر هذه العقيدة هو المعنى الحقيقي للدولة العظمى المفرطة القوة.

قدم رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الحجة باستمرار على أن الخيار الوحيد المتاح للوقوف في وجه الدولة العظمى المفرطة القوة هو تقديم المشورة الحكيمة. لكن هذا السبيل جوبه برفض متزايد من قبل الحكومات والشعوب في مختلف أرجاء العالم. لقد قسمت عملية التعبئة للحرب ضد العراق الأمم المتحدة، واستثارت أضخم مظاهرات مناهضة للحرب شهدها العالم في تاريخه. وبرغم كل ذلك، تشبثت أمريكا بتصميمها العنيد على شن الحرب بمفردها إذا اقتضت الضرورة، ودون استشارة الحكومات الحليفة المعنية (كما هو مفترض) التي مثلت بصدق رغبات الناخبين في دولها.

بدلا من الانخراط في حوار بناء، عبرت الحكومة الأمريكية عن سخطها واستيائها. أما مقدمو البرامج الإذاعية والتلفزيونية من المحافظين الجدد النافذين فقد مضوا مسافة أبعد. إذا لعبوا دور "مدراء حلبة السيرك" لتفجير طوفان دفّاق من المشاعر الازدرائية والتحقيرية لدى عامة الناس الذين عبئوا لمقاطعة المنتجات الفرنسية والألمانية في طول أمريكا وعرضها

(على سبيل المثال، أطلق اسم "الحرية الفرنسية المقلية" على "البطاطا الفرنسية المقلية"!). وإذا كان لمثال واحد أن يجسد الحالة المزاجية السائدة، فهو بيل اوريلي من شبكة "فوكس نيوز". ففي ذروة التوتر حول إصدار قرار ثان من مجلس الأمن لشرعنة الحرب على العراق، أخبر اوريلي مشاهديه أن العامل الأساسي هو الأمن، أمن عائلته، ولهذا "ليس ثمة تكافؤ أخلاقي بين الولايات المتحدة وبلجيكا". وهذه في الواقع هي الروح السائدة في الدولة العظمى المفرطة القوة منطوقة ومعلنة ومبينة في المجال العام.

لقد أثارت رغبة أمريكا الطاغية في شن الحرب عددا لا يحصى من الأسئلة حول تعاملها مع الدول الأخرى. صحيح أن نظام طالبان قد سقط في أفغانستان، لكن ليس ثمة إحصائيات تشير إلى عدد المدنيين الأبرياء الذين قتلوا وجرحوا لتحقيق ذلك الهدف الأمني. وشهد الأفغان حقبة من الفوضى ذكرتهم بالفترة التي سبقت وصول طالبان إلى الحكم، ولم يرتع الشعب الأفغاني بعهد زخيّ من الديمقراطية في ظل الدولة العظمى المفرطة القوة، بل خضع لحكم أمراء الحرب الأفغان. وبعيدا عن تخوم كابول العاصمة، بقيت البلاد تعيش في حالة من الفوضى وانعدام الأمن أعاقت أية جهود هادفة لإعادة البناء، كما أن

هنالك صعوبات هائلة تعترض وصول معونات الإغاثة إلى السكان في الأرياف.

في العراق، أعلن بسرعة عن انتهاء الأعمال الحربية، لكن لم يعرف العراقيون لا الأمن ولا الأمان ولا السلام وذلك مع استمرار فراغ السلطة الذي أدى إلى الفوضى والاضطراب. وتبين أن خطط أمريكا الهادفة لبناء الدولة العراقية تخدم في الواقع المصالح الأمريكية الاستراتيجية والاقتصادية لا رغبات الشعب العراقي. لقد أوضحت أمريكا بجلاء لا لبس فيه عزمها على خصخصة جزء كبير من الاقتصاد العراقي، مع تقديم عقود الإعمار كهدايا - دون مناقصات معلنة - للشركات الأمريكية الكبرى (العديد منها مرتبط بصلات وثيقة مع البيت الأبيض وسيده) بحيث تغلق مسبقا الخيارات المتاحة أمام أية حكومة وطنية تنبثق في العراق في نهاية المطاف.

بعيدا عن القضايا المتعلقة بالحرب والأمن القومي، يبدو أن العديد من المسائل المهمة التي قمنا باستقصائها عبر طيف واسع النطاق قد استمرت في تراكمها. وبغض النظر عما إذا تمثلت تصرفات الولايات المتحدة في حماية صناعة الفولاذ الأمريكية، أو رفض الاعتراف بالإجماع العلمي على التحذير من خطر ارتفاع حرارة الأرض، أو رفض المساهمة في إنشاء محكمة الجنايات

الدولية، أو إلغاء معاهدة تخفيض عدد الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية (ABM)، والمضي قدما في برنامج مبادرة حرب النجوم، أو استخدام سلطة الحكومة لتشجيع/ والدفاع عن مصالح منتجي ومصنعي المحاصيل المعدلة وراثيا رغم معارضة ونفور وقلق المستهلكين في أوروبا، وحتى الجياع في دول العالم الثالث الفقيرة، فإن أمريكا استمرت في ممارسة سياسة القوة والهيمنة لتحقيق مصالح قومية ذاتية وضيقة.

لا نستهدف من هذا الكتاب تهيئة الأرضية المناسبة للتشكي من أمريكا، بل تحليل مدى أهمية القضايا التي تفرق الناس، وتقديم الأسباب التي تفسر انبثاق سؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" كتعبير مترابط ومتساوق عن الصورة الذاتية لأمريكا. لا يمكن للشكوى المجردة أن تؤدي أبدا إلى حوار بناء. فالحوار والجدل مع أمريكا لا يمكن أن يكونا مسألة تنحصر بالسياسة المباشرة الواضحة المعالم، أو بمناقشة الواجبات والضرورات الأخلاقية. إذ إن للحوار سياقا يشمل الأسطورة القومية والروايات التاريخية التي تشكل الصورة الذاتية للولايات المتحدة. وقضايا الحرب، والتجارة، والسياسة الخارجية لا يمكن فهمها إلا في إطار سياقها الثقافي، بعد أن

جرى تشفيرها / وحل رموز شيفرتها على ضوء التاريخ و"الحقائق الثقافية الوطنية" للأساطير القومية الأمريكية.

الصلات كانت واضحة جلية في الخطاب الأمريكي الطنان وفي ردة الفعل خلال الفترة التحضيرية للحرب على العراق، مثلما توضحت في إعلان انتهاء الأعمال الحربية. المثال النموذجي الذي يجسد هذا الأمر هو الطعن في فرنسا والتشهير بها. ففي النشرات الإخبارية والبرامج التلفزيونية الحوارية، عبر المحاربون القدماء الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية مرارا وتكرارا عن اشمئزازهم من معارضة فرنسا لمخططات الولايات المتحدة في مجلس الأمن. ومن أجل فهم الأهمية الدلالية التي نسبها هؤلاء المحاربون القدماء لميادين المعارك في أوروبا، ينبغي قراءة تحليلنا للفيلم السينمائي "شين" ("Shane"). إذ إن إراقة الدم الأمريكي على الأرض الفرنسية تعتبر - من جوانب عديدة - استطالة موسعة لتلك الفكرة السينمائية الكلاسيكية عن حق المستوطنين الأوائل بالاستيلاء على الأراضي وامتلاكها، ولا تفهم إلا على أساسها. في أمريكا، تعطي إراقة الدم الشرعية لامتلاك الأرض. فالبطل يستخدم العنف ليجعل الأرض آمنة وصالحة لغرس فضائل الديمقراطية البسيطة باسم، ولصالح، المستوطنين غير القادرين على حماية أنفسهم من طغيان الخارجين على القانون.

في الحرب العالمية الثانية، وفي النسخة الأمريكية التي تعيد رواية تاريخها، حملت أمريكا أخلاقيات روايتها عن "رعاة البقر" في الغرب "الضاري" إلى حلبة الصراع في أوروبا. الفكرة الاستحواذية التي شرعنتها هذه التضحية تتمثل في الولاء والإخلاص، في نوع من الموالاة الصادقة للفضيلة الأمريكية، المصدر الحقيقي لتفوق الولايات المتحدة، الأساس المنطقي لها كدولة عظمى مفرطة القوة. في المعنى الدلالي العميق والحقيقي، لم يتوقع الأمريكيون مناظرات وبراهين وحججا منطقية من جانب فرنسا، بل دعما ثابتا وراسخا للسياسة الأمريكية. قوة هذه النظرة القومية المؤثرة هي مصدر عدم الفهم المتبادل بين الأمريكيين والفرنسيين. بالنسبة للأمريكيين، سياسيين ومواطنين على حد سواء، لم تكن القضية مجرد خلاف حول السياسة الاستراتيجية. بل كانت اختلافا جوهريا حول القيم، والعقيدة، والواجبات، والالتزامات المنبثقة عنها في آن معا.

المشهد المعد بكل عناية لإعلان انتهاء الأعمال الحربية في العراق، جعل هذه الصلة بروح الشعب ومزاجه العام، كما يتبديان في الثقافة الشعبية السائدة، واضحة جلية ومبتذلة سطحية في نفس الوقت. الرئيس جورج بوش استحضر تخيلات

هوليود لتوكيد ما يجب أن يعنيه هذا الانتصار - "لقد انتصرنا!" - بالنسبة لأمريكا. وفي بادرة إعجاب بأحد مشاهد الفيلم السينمائي "عيد الاستقلال"، الذي لاقى نجاحا تجاريا ساحقا، ساعد الرئيس بوش في قيادة الطائرة التي هبطت على حاملة الطائرات "ابراهام لينكولن". وخرج من الطائرة مرتديا بزة الطيار المقاتل ليعانق طاقما يرتدي أفراده أزياء مشابهة على ظهر الحاملة. تم التعرف على الصورة التخييلية فورا، وعلقت عليها وسائل الإعلام داخل أمريكا وخارجها على حد سواء.

في الفيلم، يعود الرئيس الشاب، وهو ضابط سابق في سلاح الجو، إلى الخدمة القتالية وينطلق بطائرته لقيادة قواته من أجل إنزال الهزيمة بعدو من الفضاء الخارجي، عدو شرير مطلق الشر، إلى حد يتعذر فهمه ومحاورته وإصلاحه. في سلسلة من اللقطات المدهشة في مؤثراتها الخاصة، ظهر العدو وهو يدمر بخبث حقود ناطحات السحاب في نيويورك ويفجر البيت الأبيض. ليس ثمة ضرورة لمشاهدة الفيلم - "عيد الاستقلال" - لإدراك أوجه الشبه التي دأب المكتب الصحفي في البيت الأبيض على استحضارها بحذق ومكر. من الضروري فقط أن نتذكر أن الفيلم يحكي قصة معركة نضالية يخوضها سكان الأرض وبالتالي فإن النصر كوني عالمي، كما أنه يستنتج في هذا

السياق أن الرابع من تموز / يوليو سيكون - في المستقبل - عيد استقلال العالم بأسره.

لا نحلل مثل هذه الأفلام بغرض نقدها فنيا، ولكن لتقصي ما تخبرنا به منتوجات الثقافة الشعبية الأمريكية هذه عن الصورة الذاتية لأمريكا وفهمها للعالم، إضافة إلى تحليل الروابط القائمة بين الصورة والأفكار، والتساؤل عن كيفية تأثيرها في المواقف تجاه القضايا الحاسمة المتصلة بعلاقات أمريكا العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية مع بقية دول العالم. الخطاب السياسي الأمريكي ظل مترعا بالإشارات المرجعية والاستعادات المتواصلة للأسطورة القومية والرواية التاريخية طيلة السنين التالية لأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. والرئيس القادم من تكساس استخدم مرارا وتكرارا لغة "رعاة البقر" التي شاعت في الغرب "الضاري" للتعبير عن أفكاره وسياسته. في مقالة ظهرت مؤخرا في مجلة "السياسة الخارجية" (Foreign Policy) بعنوان "مفارقات القومية الأمريكية" (www.foreignpolicy.com)، قدم مينكسين بي من "مؤسسة منح معهد كارنيجي للسلام العالمي" الدليل على أن أمريكا تتصف بوعي قومي قوي ومتناقض. وبحسب رأيه فإن "القومية الأمريكية مخبأة خلف حجاب. لكن حتى لو رآها

الأمريكيون رأي العين، فإنهم لا يميزونها بوصفها قومانية". فهي تقنّع بعقيدة الفضائل والقيم الديمقراطية، وتجد التعبير عنها في الأسطورة والرواية التاريخية، وتقدم في قالب منتجات الثقافة الشعبية الأمريكية، وتصدر إلى العالم بوصفها الميراث المستقبلي لشعوبه قاطبة. وفي سبيل إيجاد الأرضية الملائمة للانخراط في حوار مع أمريكا، ينبغي أن نخضع للتحليل هذه الخاصية المميزة لقوميتها، وهذا الاستغراق الذاتي الوطني في أسطورتها وروايتها التاريخية. وبدون هذا الأسلوب التحليلي سوف يستمر سوء الفهم المتبادل بين المحاربين الأمريكيين القدماء الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية وبين عامة الشعب الفرنسي.

تخلق الثقافة الأمريكية نماذج منمطة وتصدرها إلى مختلف أرجاء العالم. لكن كما نبرهن بالحجة أيضا، لا تعتبر أمريكا سوقا مفتوحة للمنتجات الثقافية للدول الأخرى. فمن السهل بناء نموذج نمطي لأمريكا بوصفها أمة متعصبة منعزلة ومستغرقة في شؤونها الذاتية على امتداد قارتها، ولا تعلم سوى القليل، أو لا تعلم شيئا على الإطلاق، عن دول العالم الأخرى. لقد تمثلت إحدى الاستجابات الأمريكية المتطرفة لانتقاد ومعارضة الحرب على العراق في القول: "لا يهم! أنا لا آبه بما يفكر به العالم".

لكن، وكما نحاول أن نوضح في هذا الكتاب، لا يمكن اختزال أمريكا وحصرها في إطار مثل هذا النموذج النمطي المبسط. فقد شهدت حوارا ونقاشا، واختلافا في الرأي، وانتقادا لدورها وأنشطتها في الخارج. حركة السلام نشطت في أمريكا كحالها في أوروبا وغيرها خلال فترة التحضير للحرب على العراق. وليس ثمة نقص في أعداد المنتقدين الأمريكيين لأمريكا، وسياستها، وأفعالها، وأساطيرها الخرافية المستدامة. المشكلة تتمثل في مدى تهميش وتغييب هؤلاء عن التيار الرئيس للخطاب الأمريكي، وتلك حقيقة أخرى مخبأة وراء سترها. ولربما يكون أشد تأثيرات صدمة الحادي عشر من سبتمبر إثارة للقلق تضييق نطاق أفق الحوار الوطني المحدود أصلا، بالتزامن مع الرقابة الذاتية التي تبنتها وسائل الإعلام الأمريكية وأقرت بها. دان راذر، مقدم نشرات الأخبار العريق في محطة "سي بي اس" (CBS)، اعترف بذلك، ولكن في مقابلة أجريت معه في بريطانيا. خلال الحرب على العراق، بدا في بعض الأحيان وكأن المشاهدين الأمريكيين والبريطانيين يرون/ ويسمعون عن حرب أخرى. كانوا يشاهدون بالتأكيد "سلما" آخر. كان بمقدور البريطانيين أن يتابعوا بانتظام شبكات التلفزة الأمريكية الثلاث عبر البث الفضائي، إضافة إلى شبكتين إخباريتين ("كبليتين") تبثان لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم. أما

الأمريكيون فلم تتح لهم معرفة كيف تبدو أمريكا أو العالم أمام شعوب الأمم الأخرى. كما أن الأسئلة التي طرحتها وسائل الإعلام البريطانية بشكل روتيني حول الحرب والتقدم الذي حققه "السلام"، كانت غائبة عموما عن البرامج الإخبارية في شبكات التلفزة الأمريكية. والمفارقة أن المجتمع المفتوح الذي يتمتع بأقوى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمطبوعة في العالم عانى من حرمان شديد من التقارير الإخبارية النقدية والاستقصائية. إن إيجاد سبل جديدة داعمة للحوار بين مختلف الأمم ليس مسألة تتعلق بمغالبة ما دعوناه بـ"المعرفة الجاهلة" فقط، لكنه قضية تتصل أيضا بتصحيح المعلومات الناقصة والمشوهة والمحرفة.

نستهدف في هذا الكتاب تقديم الحجة التي تثبت أن الكراهية هي أسوأ الأسس الممكنة لإقامة العلاقات بين البشر عموما والأمم على وجه الخصوص. والرأي الذي نكافح جاهدين من أجله هو أن الكراهية تجرد كل البشر من صفاتهم الإنسانية وتجعل حل كافة المشكلات أشد صعوبة. الكراهية لا تكون أبدا طريقا بسيطا أحادي الاتجاه. إنها حالة علائقية تفاعلية. فهي تؤثر في كيفية تشكل الأحكام المنطقية المتعلقة بماهية التصرفات والأفعال المناسبة، والمسوغة، والمسموح بها من

قبل الطرفين اللذين يباعد بينهما جدار الشك والارتياب وانعدام الثقة المتبادلة. ويمكن أن تصبح حلقة مفرغة مستدامة من ردات الفعل الدفاعية، نبوءة تشبع ذاتها وتؤكد نفسها باستمرار.

لكل ذلك، نحن بحاجة لتجاوز تخوم الكراهية. مشكلة أمريكا هي مشكلتنا جميعا. والعثور على جواب شاف يعتمد على توضيح وجلاء طبيعة وشروط وظروف وأبعاد المشكلة، بحيث يمكن لقواعد تأسيسية جديدة للحوار والاختلاف في الرأي أن تجسّر الهوة الفاصلة بين أمريكا وباقي دول العالم. ومثلما أظهرت الحرب على العراق، فإن الأسئلة التي أثرناها والقضايا التي أخضعناها للبحث والتحليل في هذا الكتاب قد غدت أشد إلحاحا وأوثق صلة بموضوعها. أملنا أن نستفيد جميعا في أحداث المستقبل من التحليلات والبراهين والحجج التي قدمناها للعثور على حلول عملية وعلاجات ناجعة ممكنة التحقيق، ووضع القواعد المؤسسة لعالم يسوده السلام حقا.

ضياء الدين سردار

مريل وين ديفيز

مقدمة

حين خيمت سحابة الغبار على منهاتن في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، خرجت من العتمة الكئيبة المحيطة بالبرجين التوأمين امرأة مجهولة، مذهولة بعارض "صدمة القذائف". لم تقل لمراسل إحدى محطات التلفزة المنتظر هناك "لماذا؟"، وهو تساؤل بسيط قد يعبر عن عدم فهم ما حدث، بل طرحت سؤالا مركزا وموجعا ومثيرا: "لماذا يكرهوننا؟". سرعان ما ذاعت كلماتها لتغدو مضغة في كل فم. رددها الرئيس بوش، والسياسيون، والمعلقون، وظهرت في الصحف والمجلات، وتكررت مرارا في محطات الإذاعة والتلفزيون، وتناقلها الناس في الشوارع والبيوت في طول أمريكا وعرضها. كما طرح السؤال نفسه في كافة أرجاء العالم خارج الولايات المتحدة.

طرأ تحول ماكر على هذه الكلمات نتيجة تكرارها المتواصل. السؤال اكتسب مرتبة الحقيقة الواقعية، صفة البيان التصريحي الذي يمكن افتراض معناه الدلالي، بدل أن يشكل قاعدة مؤسسة للبحث والتقصي. الحاجة لمعرفة السبب تحولت إلى سبب يحول دون المعرفة.

في نيسان/أبريل 2002، ألقى روبرت فيسك، المراسل الصحفي البريطاني الخبير بشؤون الشرق الأوسط، سلسلة من المحاضرات خلال جولة له في أمريكا. اختار فيسك، المعروف بانتقاده الصريح لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، عنوانا تعمد أن يكون مستفزا لمحاضراته: "الحادي عشر من سبتمبر: اسأل من فعلها، لكن بحق السماء لا تسألنّ عن السبب". ولأول مرة مذ بدأ فيسك يلقي مثل هذه المحاضرات قبل عقد من السنين، صدم حين اكتشف أن الحاضرين الذين اكتظت بهم القاعات قد عبروا عن "رفض أمريكي جديد واستثنائي للقبول بالخط الرسمي [لسياسة الحكومة]، علاوة على تنامي وعي إدراكي غاضب لدى الأمريكيين بأنهم كانوا ضحية للكذب والخداع"[1]. ويشير إلى أنه لم يحدث أبدا من قبل أن سأله الأمريكيون: "كيف يمكن أن نجعل صحافتنا تتعامل مع الشرق الأوسط بنزاهة؟"، أو (وهذا أمر أشد إثارة للاهتمام): "كيف نجعل حكومتنا تعكس آراءنا؟". أحد ضباط البحرية المتقاعدين روى تجربته الشخصية في حرب عام 1973 في الشرق الأوسط، قبل أن يعلق على موضوع الاجتياح الإسرائيلي لأراضي السلطة الفلسطينية عام 2002: "حين أشاهد على شاشة التلفزيون طائراتنا ودباباتنا تستخدم لمهاجمة الفلسطينيين أستطيع أن أفهم لماذا يكره العالمُ الأمريكان"[2].

لسوف نركز على السؤال - "لماذا يكره العالم أمريكا؟" - باعتباره سؤالا استفهاميا لا بيانا تصريحيا، ونتفحص أطره المرجعية، ونعتبره صادقا وجادا وموضوعيا يدل على فجوة في الاتصال والتواصل، ونقص في المعلومات والمعطيات.

الكتاب لا يتمحور حول اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر؛ ولا يتحرى الفعل الذي انبثق عنها. لكن الحدث الجلل المريع هو الذي استحثنا على تأليفه وأثار اهتمامنا بفهم السؤال الذي نتج عن الدمار والخراب وتعرض للتجاهل والإغفال والإهمال. الكتاب لا يدور حول الحادي عشر من سبتمبر، لأن السؤال الذي أفرزته تلك الأحداث المرعبة يتطلب استقصاء المشكلات الموجودة قبل هذه الجريمة، مشكلات كانت ستستمر بغض النظر عن حدوثها. صحيح أنها تفاقمت وتضاعفت وأصبحت أكثر إلحاحا وتفجرا، إلا أن جزءا من السبب يعود إلى أن هذه الأحداث لم تحفز تقصيا دؤوبا وحوارا جادا، بل عودة إلى نفس برنامج العمل الذي خلق أصلا مشكلة العلاقات بين أمريكا وباقي العالم. لقد حولنا انتباهنا إلى الخلفية والسياق، لا من أجل التهرب من مناقشة الجواب، بل لضآلة الأمل باتخاذ قرارات أكثر اعتمادا على المعرفة والمعطيات والمعلومات إذا لم يتم الكشف عن الخلفية وجعلها جزءا لا يتجزأ من النقاش.

الكتاب لا يركز أيضا على الجوانب الإيجابية في الولايات المتحدة: وعلى أولئك الباحثين عن رد عنيف ضد مشاعر الكره والبغضاء لأمريكا أن يتوقفوا عن القراءة الآن. فهو يتناول تبعات ونتائج التفاعل في عالم يعاني من تفاوت صارخ في القوة والثروة والحرية والفرص، بحيث يجب أن تؤخذ هذه العوامل بعين الاعتبار عند مناقشة كل حالة ووضع. في مثل هذا العالم الذي تتصل أجزاؤه اتصالا وثيقا مع بعضها بعضا، تشكل النوايا الطيبة والسيئة معا الشخصية المحلية للأمة، وبالتالي علاقتها ببقية دول العالم. ومن النقاط الرئيسة التي نركز عليها في هذا الكتاب أن العديد من أسوأ تأثيرات القوة الأمريكية أفرزتها تصرفات وأفعال مدفوعة بأخلص النوايا. ونتيجة لذلك، فإن عداوة بقية شعوب العالم للولايات المتحدة تبدو في نظر الأمريكيين غير قابلة للتعليل، الأمر الذي يجعل من الصعب على الأمريكيين من ذوي النوايا الحسنة التفكير بإحداث تغير مؤثر في السياسة. ركزنا جل اهتمامنا في الكتاب على تأثيرات السياسة الأمريكية، ماضيا وحاضرا، على العالم الأوسع؛ واستشهدنا بأمثلة من العالم الثالث على وجه الخصوص. هذه التأثيرات لا تثير قلق شعوب العالم الثالث وحدها، بل العديد من المواطنين في أوروبا إضافة إلى الولايات المتحدة ذاتها، مثل المحتجين المناهضين للعولمة، والحركات المطالبة بالعدالة

والسلام. لكن قدمنا البرهان على أن المقاربة الأكثر دقة وحنكة وإبداعا للسياسة الخارجية الأمريكية تعتبر أمرا جوهريا إذا ما أردنا لمشاعر العداء العالمية للولايات المتحدة ألا تنفلت من عقالها وتخرج عن حدود السيطرة. ومن خلال التحديد الواضح للأسباب التي تجعل العالم يكره أمريكا، نأمل بتبيان القضايا التي ينبغي على هذه السياسات الجديدة التعامل معها.

إن لم يكن السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" جديدا، فقد اكتسب صدى جديدا منذ أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. إذ أظهر على وجه الخصوص ذلك الانقسام الحاد بين سياسة اليمين واليسار - وهو انقسام مميز انهار تماما في تسعينيات القرن العشرين تحت تأثير "التحرر" و"العولمة". كما حمل إلى السطح تلك الأحكام المسبقة المتحيزة حول الإسلام والمسلمين والمتجذرة منذ عهود بعيدة في أعماق المجتمع الغربي عموما والأمريكي على وجه الخصوص.

استخفت وسائل الإعلام الأمريكية بالمقدمات المنطقية الأساسية للسؤال حين ناقشت أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وكما أعلنت بيفرلي بيكام في صحيفة "واشنطن غلوب" (Washington Globe)، هنالك حقيقة واحدة واضحة: "إنهم يكرهوننا، هؤلاء الناس المنتمون إلى ثقافة لا نعرفها ولا

نفهمها ولم نفكر بها أبدا حتى الآن". علاوة على أن هذا الكره لا يماثل أي كره آخر، حسبما أكدت. "لدينا أشخاص يكرهون الآخرين ويعيشون بين ظهرانينا، مجموعات برمتها من الأفراد الذين تملؤهم مشاعر الكراهية ضد السود والمثليين والكاثوليك واليهود. لكن هذا الكره الموجه إلى كافة الأمريكيين قاطبة أكبر حجما وأكثر خطرا وأشد تطرفا لأنه مستمد من الغضب الكظيم ثم المتفجر مهما كان الثمن"[3]. وكما سنرى في الفصل الأول، كانت بيكام تردد صدى الإجماع العام لدى معظم وسائل الإعلام التي غطت الحدث على جانبي المحيط الأطلسي.

لكل ذلك، فإن السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" مشحون بالمعاني الدلالية. فهو يفترض وجود كتلة صلبة صلدة صماء اسمها "أمريكا" هي هدف لمشاعر هائلة من الكراهية. كما يفترض أن الكراهية تتدفق في اتجاه واحد فقط: "هم/ الناس" هناك "يكرهون أمريكا" و"كل الأمريكان"، لكن أمريكا ذاتها كيان مطبوع على حب الخير. في الفصل الثاني نتساءل هل هنالك شيء ما في السؤال ذاته يفرز الاستقطاب. وعبر تحليل السؤال ووضعه في سياق تاريخي أوسع، نأمل بتحديد العوامل المساعدة على تقديم إجابة شافية وهادفة وذات معنى.

ومثلما أوضح روبرت فيسك، هنالك تنوع في الرأي داخل أمريكا يتجاوز ما توحي به الصورة الرسمية من التفاف حاشد حول الراية الوطنية. نحن ندرك تماما أن أمريكا ليست كتلة واحدة جامدة، وتلك حقيقة نحاول أن نعكسها في فصول هذا الكتاب، حتى حين نخضع للتحري والمساءلة صورة أمريكا الذاتية المؤسسة على ما يقترحه شعارها الوطني في إشارته إلى الاتحاد المشكل من ولايات منفصلة: "الوحدة من التعدد" (E pluribus unum). وعلى نحو مماثل، استخدمنا - عامدين متعمدين - كلمة "أمريكا" كما يستخدمها الجميع، مرارا وتكرارا، ودون تمييز أو تحيز. وعلى شاكلة "مبدأ مونرو" في القرن التاسع عشر، فإن الاستخدام اللاشعوري للفظة يعتبر كافة أرجاء الأمريكيتين بمثابة المجال الطبيعي لمصالح واحدة فقط من دولهما، أي الولايات المتحدة. أما حقيقة أن الجميع يفهمون كلمة "أمريكا" باعتبارها تشير إلى الولايات المتحدة فهي شهادة دامغة على هيمنة السلطة المؤسسة على ثروة الموارد، وقوة الاقتصاد، وتطبيقها على فكرة أمة فريدة متفردة. إن طبيعة هذه الفرادة، وكيفية تأثيرها في العالم الأوسع، تشكلان موضوع هذا الكتاب.

أما الاستخدام النزيه غير المتحيز للتعبير "أمريكا" من أجل تغطية العديد من الجوانب المختلفة لنفوذ وتأثير الولايات المتحدة والعمليات التي تقوم بها في العالم فهو انعكاس لما دعوناه بـ"متلازمة الهمبرغر" (hamburger syndrome)، ونعني بها ما يلي: في حين أن العالم خبر بالتجربة أمريكا من خلال العديد من القنوات المختلفة والمتباينة ـ السياسة الخارجية، الأعمال الحربية، العمليات الاستخبارية، وسائل الإعلام، المنتجات الثقافية والاستهلاكية وتلك المتصلة بأسلوب الحياة، الشركات التجارية، وكالات المعونات والمنظمات غير الحكومية، المؤسسات التعليمية ـ إلا أنها جميعا ترتبط بعلاقات متجانسة ومتبادلة فيما بينها. فشطيرة "الهمبرغر" تأتي ضمن "صفقة" شمولية: فهي وجبة طعام في حد ذاتها؛ تنتج، وتباع، وتؤكل بطريقة خاصة؛ والنظام بأكمله جزء لا يتجزأ من تجربة "الهمبرغر". ولا يمكن أن تقبل جزءا وترفض آخر. فلربما تقرر أن "ترمي" المخلل، أو الطماطم، أو الخس من الشطيرة، لكن يجب عليك أولا أن تشتريها كلها وتدفع ثمن كافة مكوناتها دون استثناء، بغض النظر عما إذا كنت تستسيغ مذاق بعضها أم تعافه نفسك.

تشكل أمريكا - في تصرفاتها وأفعالها وتأثيرها في شعوب العالم الأخرى - كلا مترابط ومتجانسا إلى حد هائل. وفي كل مكان يسافر إليه الأمريكان يحملون في ركابهم هذا الكل المعقد ويعملون ضمن إطار مرجعيته. وإذا ما فشل العالم في التمييز بين الجوانب والملامح المختلفة لأمريكا، فإنه لا يفعل أكثر مما ألحت أمريكا عليه. في الفصلين الثالث والرابع، نواجه هذه المسألة بصورة مباشرة. ومن خلال تفحص وسبر السياسة الأمريكية على الصعيدين الخارجي والاقتصادي، وتعاملها مع باقي دول العالم في الأمم المتحدة، وهيمنتها على المؤسسات العالمية، مثل صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، وعلاقتها مع الدول النامية خلال العقود الخمسة الأخيرة، نستكشف الأس المنطقي لمخاوف العالم وقلقه من أمريكا. علاوة على ذلك، نقوم باستقصاء الطريقة التي تم من خلالها بيع وتسويق "الماركة المسجلة" المسماة "أمريكا" في بقية أرجاء العالم، وعواقب وتبعات عولمة الثقافة الأمريكية بالنسبة للدول النامية.

لا يدرك معظم الأمريكيين مدى تأثير ثقافتهم وسياسات حكومتهم في دول وشعوب العالم الأخرى. لكن الأهم من ذلك أن الغالبية الساحقة منهم لا يعتقدون بأن أمريكا قد ارتكبت،

أو يمكن أن ترتكب، أي خطأ. وكشف استطلاع "للرأي بزعماء العالم"، في السياسة والإعلام والتجارة والثقافة والحكم أجرته صحيفة "انترناشنال هيرالد تريبيون" (International Herald Tribune) الصادرة في باريس، عن أن غالبية المستفتين من غير الأمريكيين (58٪) يشعرون بأن سياسات واشنطن تعتبر "سببا رئيسا" في إثارة مشاعر السخط والغضب ضد الولايات المتحدة. وذلك في مقابل نسبة لم تتجاوز 18٪ من الأمريكيين الذين يضعون اللوم على سياسات حكومتهم. إضافة إلى أن 90٪ من الأمريكيين يعتبرون أن قوة بلادهم وثروتها هما السبب الرئيس وراء كره العالم لهم، في حين تعتقد الأغلبية الساحقة من غير الأمريكيين أن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية الهوة الفاصلة بين أغنياء العالم وفقرائه. وأشار الاستطلاع إلى أن "معظم شعوب العالم ترى الهجمات باعتبارها أمارة رمزية دالة على الاستقطاب المريز المتزايد بين الأغنياء والفقراء"؛ وأن أمريكا مسؤولة عموما عن "ضياع الفرصة من الدول النامية للحصول على مكاسب التقدم الاقتصادي"[4].

لمَ تتباين مدركات الأمريكيين وغير الأمريكيين إلى هذه الدرجة؟ لمَ تحظى افتراضات البراءة والاعتقاد بالتفوق الأخلاقي للذات بهذه المكانة المحورية في الصورة الذاتية لأمريكا؟ في

الفصلين الخامس والسادس نحدد موقع صورة الذات الأمريكية في رواياتها التاريخية والأساطير المؤسسة لأمريكا؛ وفي فكرة البطل الأمريكي الذي "يفعل ما ينبغي على الإنسان أن يفعله" على حد تعبير الممثل السينمائي جون واين. وهنا، نقدم الحجة على أن التعاريف عبارة عن تعابير علائقية، وأن صورتنا لذاتنا تشمل - وتعتمد في جزء منها على - نظرتنا للآخر. هذه الطبيعة العلائقية لأمريكا هي التي تهمنا بشكل خاص. إن فكرة أمريكا (أمريكا كفكرة)، وصورتها الذاتية، وإحساسها بالهوية، بكل فرادتها، ظلت على الدوام أقل اهتماما بالتاريخ مقارنة برؤية المستقبل التي تتطلب أسلوبا خاصا للتصرف والفعل في الحاضر. ونحن هنا نركز اهتماما خاصا على حقيقة أن نظرة أمريكا المؤمثلة لمستقبل البشر تسمح بظهور انفصال فصامي مشوه، وخطر، ووحشي، ومدمر في أغلب الأحوال، بين الغايات والوسائل. إن تحديد وتعريف فكرة أمريكا باعتبارها "المستقبل" (بألف ولام التعريف)، مستقبل كل البشر، هما في الواقع إنكار متغطرس لحرية الآخر، ورفض متكبر للقدرة الكامنة في الحاضر على خلق سبل مستقبلية بديلة أمام الصورة المعقدة للعالم برمته وشعوبه قاطبة.

لا يوجد مجتمع أكثر انفتاحا من المجتمع الأمريكي، الذي يرتع في نعمة وسائل الاتصال المتاحة، ومصادر المعرفة والتعلم الوفيرة، وحرية التعبير عن الأفكار وابتكارها. ولكن منتَج هذه البنية التحتية الأمريكية العملاقة - وسائل الإعلام - مركز إلى حد بعيد على الداخل ومستغرق في شؤون الذات. العالم أيضا يعرف أمريكا ويختبرها من خلال وسائل إعلامها، خصوصا هوليود التي صاغ أعمالها الوعي الأمريكي ووجهة النظر الأمريكية. لقد أصبحت السينما والتلفزيون اليوم، إضافة إلى وسائل الإعلام الأخرى، أدوات التمثيل (representation) الرئيسة التي يفكر العالم من خلالها - أو لا يفكر بسببها في أغلب الحالات! - ويدرك ويرى ويلاحظ. ولذلك لا نعتذر عن تضمين معظم تحليلاتنا في الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية، نظرا لأن الفهم المتعمق لسؤالنا المركزي يدعونا لتجاوز السياسة التقليدية، ومعاينة القيود الثقافية والتمثيلية التي تعيق حركة العالم. وقوة وسائل الإعلام الأمريكية، كما نحاجج مرارا وتكرارا، تشتغل لإبقاء ذهن الشعب الأمريكي مغلقا أمام تجارب وأفكار العالم، وبالتالي زيادة الانعزال، والاستغراق في شؤون الذات، والجهل، وهذا يمثل المشكلة الطاغية التي يعاني منها العالم مع أمريكا وتتعرض للتجاهل والإهمال.

أمريكا هي ما دعوناه بـ"الدولة المفرطة القوة" - أي الأمة التي بلغت من القوة مبلغا يؤثر في حياة الناس في كل مكان. لكن هناك عوائق تحول بين الأمريكيين وبين معرفة ومناقشة التبعات الفعلية لعلاقة دولتهم مع العالم. مرة بعد أخرى، كرر المواطنون الأمريكيون العاديون في الاجتماعات الانتخابية المتلفزة في البلدات والمدن بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الإقرار بهذه الحقيقة. القوة بدون التحكم الديمقراطي والمراقبة والإشراف المعتمدين على المعرفة والمعلومات الصحيحة تفتقد المسؤولية وغير جديرة بالثقة. ولا تكون تعبيرا عن "الحق"، بل قد تصبح "وصفة" للتواطؤ على "الباطل" والتستر على الأخطاء والخطايا التي ترتكب باسم المواطن، وبدون موافقته، وضد حكمه الصائب الحصيف حين يعطى الفرصة للتفكير الهادئ الرزين.

سببت أحداث الحادي عشر من سبتمبر صدمة مروعة للروح الأمريكية. فقد أفرزت عددا لا يحصى من المبادرات في المؤسسات التعليمية والتربوية على كافة مستويات النظام التعليمي في الولايات المتحدة. من بين الحجج والأدلة المحورية التي نقدمها أن مشكلة المعرفة تكمن في صميم العلاقات الإشكالية بين أمريكا والعالم. وبتعبير أكثر دقة، ندعو هذه المشكلة بـ"المعرفة الجاهلة": معرفة الناس، والأفكار،

والحضارات، والأديان، والتاريخ ضمن إطار مغاير للحقيقة، بل يستحيل أن يكوْنها، والتشبث بالأفكار الراسخة ضمن هذا الإطار حتى حين تتوفر الوسائل لمعرفة الحقيقة بشكل مختلف. المعرفة الجاهلة تعبير يمكن تطبيقه على نظرة الغرب للإسلام والمسلمين على وجه الخصوص. وهي تشير إلى أكثر من مجرد الأفكار والمواقف السلبية العمومية؛ إذ تحدد وتعرف الطريقة التي تتبني عبرها هذه المواقف لتغدو مقاربة للمعرفة، فرعا دراسيا ومعرفيا يدعى الاستشراق.

مشكلة المعرفة هذه ليست مقتصرة على أمريكا حصرا؛ فهي ملمح عام من ملامح الحضارة الغربية، ولها أصول ضاربة الجذور في عمق التاريخ. فالمصادر التي يتحول إليها الغرب ويعتبرها بمثابة مناهل لمعرفة "الآخر" اللاغربي - الرأي القائم على المعرفة والعلم والدليل المعرفي - تمثل مشكلة في حد ذاتها. وبالنسبة للولايات المتحدة، فإن أفكارها الذاتية وتاريخها الخاص هما المقياس المعياري الوحيد لما هو منطقي، أو طبيعي، أو مناسب، الأمر الذي يعني أن أمريكا "تبني وتركب" ما تعرفه عن الثقافات الأخرى ضمن معارضة ثنوية ضدية بين "المشابه" و"المختلف". وبهذه الوسيلة، تظن أمريكا أنها أفضل من يعرف طبيعة، وشخصية، ومعنى "الآخر". لكن ما تراكم

لديها في الواقع ليس سوى حكم متحيز مؤسس على المصلحة الذاتية، وتحليل يخدم الذات، بحيث لا ينتج عن كل ذلك سوى ازدواجية في المعايير.

توضحت المعايير المزدوجة المؤسسة على المعرفة الجاهلة بكل جلاء في ردة الفعل على أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ونحن نبرهن بالأدلة على ضرورة التعامل مع مشكلة المعرفة هذه، وأن من الممكن حلها عن طريق إرجاء الحكم على الآخرين إلى ما بعد الاستماع لما سيقولونه عن أنفسهم. فضمن ثقافات الدول النامية، والمهاجرين القادمين منها إلى الغرب، هناك تنوع في الآراء، وتعددية في مذاهب التفكير، وحوارات لا حصر لها. ولا يعتبر الإسلام ولا أية حضارة لاغربية أخرى كتلة جامدة صماء. والأهم من كل ذلك أن هذه الحضارات لا تفتقد المرونة ولا تتحدد بتاريخها القديم فقط. فهي جميعا عبارة عن تقاليد تراثية حية تسعى باستمرار للتكيف مع المتغيرات والاستجابة لها، والتبدل والتطور ضمن شروطها الخاصة، وتبعا لتجربتها وقيمها وأفكارها. وحين تلعب المعرفة الجاهلة دور ديدبان البوابة لمنع دخول المعلومات الضرورية والمهمة عن حضارات العالم الثالث، بدلا من الإصغاء لما ستقوله عن نفسها، فإن من المستحيل انبثاق أي نوع من الفهم المتبادل.

لقد صاغت أمريكا رؤية عن "محور الشر"، باعتباره انحرافا ضلاليا معاديا، لا يستوطن ويختبئ ويكمن داخل حفنة من الدول فقط، بل في مجتمعات محلية وجاليات منتشرة في معظم أنحاء المعمورة. أصبح الإرهابيون عصبة واحدة بسيطة التكوين يستحيل التمييز بين أفرادها الذين جردوا من كل الصفات الإنسانية، واجتثت كافة جذورهم وسماتهم المميزة، السياسية، أو الاجتماعية، أو التاريخية، أو الثقافية. هذا النوع من الإطلاقية الكاملة يفرز نقيضه؛ فهو ينعكس في رؤية أمريكا باعتبارها هي الأخرى انحرافا ضلاليا معاديا، قوة شريرة شرسة تمارس أعمال التخريب والنهب في دول العالم الأخرى. تلك لعمري وصفة ناجعة للكارثة دون ريب. فهي القاعدة المؤسسة لأبلسة "الآخر" وتجريد العلاقات معه من ملامحها الإنسانية في عالم يزداد اتصالا مع بعضه بعضا باطراد. ولا يأتي الأمان والأمل إلا من معرفة الذات ومعرفة الآخر، وإظهار ما يعرفه الآخرون عن أنفسهم.

تمتلك أمريكا القوة والموارد الكافية لرفض تفحص أفكارها ومشاعرها ودوافعها الذاتية. والأهم من ذلك أنها أمة طورت تقليد إغفال "الاستبطان" هذا. لكن أمريكا أمة تنتج أيضا نقدا لاذعا للذات، إضافة إلى العديد من الآراء المنشقة

والمعارضة الصادرة عن الكتاب، والفنانين، والأكاديميين، والمهنيين، وحتى السياسيين، الذين كررنا الاستشهاد بهم في فصول هذا الكتاب. مشكلة العالم الآن - ومشكلة عدد كبير ومتزايد من الأمريكيين، حسبما ذكر روبرت فيسك - هي محدودية التنوع في الرأي الأمريكي الذي يعكسه الخطاب السياسي للحكومة، والكونغرس، ووسائل الإعلام. وكثيرا ما يبدو داخل الولايات المتحدة أن أصعب عنوان للجدل والحوار هو فكرة أمريكا ذاتها ومشكلاتها، ناهيك عما إذا كانت هذه الفكرة بحاجة للتعديل أو التحسين بطريقة ما. وبغض النظر عما يخلقه ذلك من إحباط في الولايات المتحدة، إلا أنه يمثل السبب الرئيس للحنق والبغضاء والعداء وحتى الكراهية فيما وراء حدود أمريكا. إن لم يكن بمقدور أمريكا تفحص أفكارها ومشاعرها ودوافعها وتاريخها، وطريقة استخدامها للقوة والثروة داخل حدود الوطن وخارجها، وعواقب أسلوب الحياة الذي تتبعه، وتبعات الوفرة التي تتمتع بها، والعلاقات بين نوعية الحياة والقيم، وبين المثل العليا وتطبيقها العملي على كافة مواطنيها بدون استثناء، فما هي الفرصة المتاحة أمام العالم للدخول مع أمريكا في حوار بناء ونقاش منطقي؟

الكره لا يشكل بالطبع قاعدة انطلاق لبناء عالم يسوده الأمن والأمان. في الفصل السابع نقدم موجزا بالأسباب التي جعلت الأمريكان "أكثر شعب مكروه على وجه الأرض"، حسب تعبير إحدى اللافتات التي رفعها الباكستانيون بعد الحادي عشر من سبتمبر. كما نستكشف الطرائق التي نستطيع من خلالها - كلنا، أمريكيون وغير أمريكيين على حد سواء - أن نسمو فوق أسوار الكراهية ونعمل باتجاه مستقبل أفضل وأكثر قابلية للتحقيق.

لقد عبرنا عتبة القرن الحادي والعشرين باتجاه خطر داهم يحدق بنا، يعنّينا المزيد من الآلام والتباريح الإنسانية المروعة التي فاقت كل ما بدا ممكنا. وفي خضم كل العنف والكره المهيمنين على العالم، لا تتضح إلا حقيقة واحدة: نحن كلنا - أفراد ومجتمعات، أمريكيون وغير أمريكيين - نتحمل مسؤولية المآزق والأخطار التي تَجْبه العالم. ومن واجبنا جميعا أن نفكر، ونتصرف، ونعمل معا؛ هنالك مهمة يجب إنجازها في كل مجتمع للتخلص من مشاعر البغضاء والكراهية وبناء احتمال التعايش السلمي المشترك. نأمل بأن يشكل هذا الكتاب خطوة صغيرة نحو ذاك الاتجاه المأمول.